مكتبة
مؤمن قريش

٤٠

أوراق عربية

مركز دراسات الوحدة العربية

سِيَرٌ وأعلام (١٦)

عبد الوهاب المسيري وتفكيك الصهيونية (١٩٣٨ ـ ٢٠٠٨)

محمد طيفوري

عبد الوهاب المسيري
وتفكيك الصهيونية
(١٩٣٨ ـ ٢٠٠٨)

مركز دراسات الوحدة العربية

أوراق عربية ٤٠

سِيَر وأعلام (١٦)

عبد الوهاب المسيري وتفكيك الصهيونية (١٩٣٨ ــ ٢٠٠٨)

محمد طيفوري

مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه
الإمام الصادق (ع)
mamenquraish.blogspot.com

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

طيفوري، محمد

عبد الوهاب المسيري وتفكيك الصهيونية (١٩٣٨ ـ ٢٠٠٨)/ محمد طيفوري.

٣٢ ص. ـ (أوراق عربية؛ ٤٠. سِيَرٌ وأعلام؛ ١٦)

ببليوغرافية: ص ٣٢.

ISBN 978-9953-82-565-6

١. المسيري، عبد الوهاب. ٢. الصهيونية. أ. العنوان. ب. السلسلة.

928.927

العنوان بالإنكليزية

Abdul Wahab Al-Maseeri and the Deconstruction of Zionism (1938-2008)

Muhammad Tayfuri

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣

الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت، فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: http://www.caus.org.lb

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٢

المحتويات

مقدمة ٧

أولاً : عن المشروع الفكري للمسيري ٨

ثانياً : عبد الوهاب المسيري من التفكيك إلى التركيب :
نحو عقل نقدي توليدي ١٠

١ ـ في تحديد النماذج ١١

٢ ـ في تركيب النماذج ١٢

ثالثاً : «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»،
مشروع حياة ١٣

١ ـ مخاض إبداع هذا المنجز الأصيل ١٣

٢ ـ تأملات في البناء المنهجي للموسوعة ١٧

٣ ـ وقفة مع بعض حقائق الموسوعة ١٩

رابعاً : السيرة الذاتية، أو حين يحمل النص
أكثر من معنى ٢٢

خامساً : عبد الوهاب المسيري مناضلاً،
على أكثر من جبهة ٢٥

سادساً : المشروع الفكري للمسيري
في عالم ما بعد الثورة ٣٠

المراجع ٣١

«ترجّل عبد الوهاب المسيري في زمن ازدادت فيه الحاجة إلى أمثاله؛ زمن تنازل فيه كثير ممّن يسمّون أنفسهم مثقفين عن أدوارهم التاريخية، واستقالت عقولهم وأقلامهم من مهمة التفكير والإبداع، وركنوا إلى المناصب والألقاب، وتبرير الأوضاع القائمة مقابل التعيش من موائد أصحاب السلطة والمال والنفوذ».

إبراهيم أمهال

مقدمة

نقول بعيداً عن التعاريف التي سِيقت في معرض ضبط وتحديد هوية هذا الهرم الفكري وحصره في تيار أو توجّه فكري معين، بأنه المفكّر المصري والعربي الكبير، بدون زيادة أي قرينة أخرى. فالرجل معروف بسياسة الاحتواء والتجاوز التي ينهجها تجاه التيارات الفكرية التي بواسطتها يستطيع استيعاب خطاب الكل، مولّداً في الوقت نفسه خطابه الخاص الذي يرتاح له الآخرون مهما كانت توجهاتهم إسلامية أو يسارية، قومية أو علمانية، بل يكاد الكل يجد ذاته فيه، لما يتسم به من منهجية وتحليل وتركيب متناسقين.

لم يتوقّف عبد الوهاب المسيري معرفياً عند الأدب الإنكليزي، بل استمشق دروب الدراسات العليا في الأدب المقارن، ومنه إلى المناهج النقدية من خلال دراسة الحضارة الغربية وسوسيولوجيتها

التركيبية والعلاقاتية. في هذا التعدد والتنوع المعرفي تكمن الإجابة الصادمة لكلّ أولئك الذين يطلبون منه بالمباشر أو المرموز ألاّ يكون ضد التيار، وأن ينضم إلى محابي الواقع المصري، والعربي بصفة عامة. إلا أنه يأبى إلا أن يختار أن يكون في الضفة الأخرى، منصّباً نفسه مدافعاً عن قيم الحرية والعدالة والديمقراطية والمساواة والكرامة وغيرها من القيم الإنسانية، التي تشبّع بها من خلال تكوينه الأكاديمي، وتجربته العملية في الغرب، كما يحكي ذلك في سيرته.

تضافر كلّ هذه العوامل صيّرت المسيري معارضاً أصيلاً، تجلّت مواقفه أكثر ما تجلّت أثناء توليه منصب المنسق العام للحركة المصرية من أجل التغيير، المعروفة اختصاراً باسم «كِفايا» (قبل أن توافيه المنية) التي تمثّل تجمّع المعارضة بجمهورية مصر العربية في عهد نظام الرئيس المخلوع محمد حسني مبارك.

أولاً: عن المشروع الفكري للمسيري

إن أعمال المسيري الفكرية تمثّل حلقة من حلقات الحركة الفكرية العربية في العقود الأخيرة، وتمثّل أعماله البحثية ـ لاسيما موسوعته الشهيرة عن اليهودية ـ نموذجاً لإنتاج العلماء الرهبان الذين صاروا عملة نادرة في زماننا هذا. وأهم ما يستحق الاحترام والتقدير في شخصية المسيري هو الجرأة الفكرية والصراحة والصرامة في النقد والنقد الذاتي، وهذا لا يتأتّى إلا من الرجل المفكّر الذي يهتم بعمق الفكرة ويسبر محتواها ومصاديقها. فالمسيري اليساري لم يكن عابداً لصنم اليسار وأيديولوجياته، ومساره إلى الاتجاه الإسلامي لم يحوله إلى رجل دين أو داعية، فظل إلى آخر لحظة محترماً دوره كمفكّر يصوغ رؤيته، ملتزماً ما وصل إليه من إيمان بالمطلق والغيب، بدون أن يتحول إلى فقيه أو داعية، مع مشاركته المستمرة

في النقاش الإسلامي حول القضايا الكلية الراهنة. وهو إذ أدرك ما آلت إليه شخصيته من احترام مختلف الأطياف الفكرية والاجتماعية، فقد استجاب لأن يكون رافعاً للشأن العام، وذا دور مقاوم في تحريك القضايا التي يؤمن بها؛ مؤسّساً لتجربة إنسانية فريدة، بعيداً عن كونه كائناً تنظيمياً مؤدلجاً، يصلح لخوض المعارك هنا وهناك.

جاءت أعمال المسيري من حيث عتباتها ودواخلها وفية للبراديغم نفسه الذي نحته لممارسته المعرفية، فكانت أعمالاً مميزة مثل «العالم من منظور غربي» و«فكر الاستنارة وتناقضاته» و«قضية المرأة بين التحرر والتمركز حول الأنثى» و«الفردوس الأرضي» و«دفاعاً عن الإنسان» و«العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» و«فقه التحيّز» و«الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان». . .، هذا فضلاً عن مؤلفات متميزة عن اليهودية والصهيونية كـ «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» التي سوف نتوقف عندها في هذه الدراسة، و«مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي» و«من الانتفاضة إلى حرب التحرير» و«انهيار إسرائيل من الداخل». . . إلخ.

عناوين، إلى جانب أخرى، أغنت الخزانتين العربية والعالمية، تنسجها ثلاثة خيوط:

أولها، نقده الشديد لاستخدام المفاهيم بدون التنبيه إلى حمولتها، مما دفعه إلى إبداع وابتكار مفاهيم خاصة به كالجماعات الوظيفية، الحوسلة، التشيئية وغيرهما.

وثانيها، التفكيكية الواسعة التي اشتهر بها هذا الرجل في إطار المراجعة النقدية والجذرية للتفكيكية، فقد وصفه أحد الكتّاب بالمفكّر الذي يفكر تفكيكياً في عملية تفكيك التفكيكية نفسها.

وثالثها، الجرأة الفكرية والصراحة في النقد والنقد الذاتي. أمر

كشف عنه في سيرته الذاتية **رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمار** حيث لم يرتهن للأيديولوجيا اليسارية، كما أن التوجه الإسلامي لم يصيّره داعية، بل حافظ على دوره كمفكّر وباحث ذي رؤية نقدية.

ثانياً: عبد الوهاب المسيري من التفكيك إلى التركيب: نحو عقل نقدي توليدي

تتّسم الأبحاث والدراسات في مجال العلوم الإنسانية باحتوائها العديد من المفاهيم والمصطلحات، التي يسعى الباحث من خلالها إلى تفسير الظاهرة موضوع الدراسة. بيد أن عملية التفسير لا تستقيم بدون تحديد وإيضاح معاني ودلالات هذه المفاهيم قبل الخوض في دراستها ونقدها. فالمفاهيم والمصطلحات تساعد في فهم وتفسير الظواهر بقدر ما توقع في الوهم والغموض الشديدين، إذا ما تجاهل الدارس أو الباحث تحديد دلالات هذه المفاهيم.

حقيقة تنبّه إليها المسيري مبكّراً من خلال التأكيد أن المناهج الغربية مناهج متحيّزة في رؤيتها للعالم وإدارتها للواقع، وأن لها حدوداً في فهم وتفسير الظاهرة الإنسانية والاجتماعية بل وحتى الطبيعية.

حتّم ذلك على المسيري السعي نحو تحديد المفاهيم والمصطلحات، وقد فعل ذلك بطريقة رصينة للغاية، ليقدّم مع ثلّة من الباحثين، من شتى التخصصات، رؤية عربية نقدية ـ فقه التحيّز كأعلى مراحل التحرر المعرفي ـ في المفاهيم والمقارنات السائدة في علم من العلوم أو فرع من فروع النظرية الاجتماعية. ولم يتوقف المسيري عند تفكيك النماذج الغربية من خلال تعرية تحيّزها، بل تجاوز الأمر إلى تركيب بديل لها.

١ ـ في تحديد النماذج

إن النموذج عند المسيري يشير إلى بنية تصورية أو خريطة معرفية، يجرّدها عقل الإنسان (بشكل واعٍ أو غير واعٍ) من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق، فهو يَستبعد بعضهَا باعتبارها غير دالّة (من وجهة نظره)، ويستبقى البعض الآخر، ثم يربط بينها وينسقها تنسيقاً خاصاً بغية تجريد وصياغة نمط عام منها. نمط يأخذ شكل خريطة إدراكية يتصور صاحبها أنها مماثلة في تناسقها وترابطها للعلاقات الموجودة بين عناصر الواقع.

وباختصار نقول إنه مجموعة من المحددات التي تحولت إلى صورة متماسكة ترسّخت في أذهاننا ووعينا، بحيث لا نرى الواقع إلا من خلالها، فهي رؤية متكاملة للواقع في أغلب الأحيان.

أ ـ النموذج الإدراكي: يؤكد المسيري أن توظيف النماذج مسألة حتمية؛ لأنها تدخل في صميم عملية الإدراك، ما يعني أن كلّ ما هو إنساني صادر عن نموذج محدد، لأن الإنسان لا يدرك الواقع بشكل مباشر، وإنما من خلال نموذج ينعته المسيري بالنموذج الإدراكي، علماً بأن النماذج الإدراكية ليست دائماً واعية، بل هي في أغلب الأحيان غير واعية، يستبطنها المرء تدرجياً، وتصبح جزءاً من وجدانه وسليقته وإدراكه من خلال ثقافته وتفاصيل حياته.

إن النماذج الإدراكية كامنة في النصوص التي نقرأها، وفي الظواهر الاجتماعية التي توجد داخلها، والمعايير التي نعيش وفقاً لها. كل هذا يجعل مهمة الباحث ـ في نظر المسيري ـ تنصبّ على تحديد ملامح ومحددات النموذج الناظم، لأدب هذا الأديب وفكر ذاك المفكر، أو النموذج الحاكم لسلوك أعضاء مجتمع من المجتمعات أو حضارة من الحضارات.

ب ـ **النماذج التحليلية**: هي نماذج واعية يصوغها الباحث من خلال قراءته للنصوص المختلفة، وملاحظة الظواهر المتنوعة، ثم يقوم بتفكيك الواقع وإعادة تركيبه من خلالها، بحيث يصبح الواقع (أو النص) مفهوماً ومستوعباً بشكل أعمق؛ ما يعني أن هذه النماذج إنتاج إبداعي ذاتي في تفاعلها مع الواقع الموضوعي.

٢ ـ في تركيب النماذج

«ما أروع ما يشعر به المرء كلّما استطاع أن يتبينّ الوحدة والارتباط بين عدد من الظواهر التي كانت تبدو من قبل منفصلة تمام الانفصال»؛ بهذه العبارات يعبّر عالم فيزياء عمّا يخالجه، وهو ينجح في اكتشاف ما يوجد من تشابه واتساق بين الخصائص الطبيعة الموجودة في أصغر الأجسام، وتلك الموجودة في أكبرها. لا ضير أن نستعير العبارة ذاتها لوصف هذا العقل العبقري، من خلال ميله الطبيعي إلى اكتشاف الروابط القائمة بين الأشياء التي قد تبدو لنا غير مرتبطة. فعبقرية المسيري تتجلى في قدرته على رؤية المشترك بين الأشياء التي تبدو مختلفة، ورؤية العلاقة بين الأشياء التي تبدو منفصلة.

هذه القدرة على الربط مكّنت الرجل من توليد نماذج تحليلية مركبة، وظّفها في أبحاثه، خاصة الموسوعة، وهي:

الحلولية الكمونية، التي تمثل الرؤية للواقع، يعني أن الإله قد حلّ في الواقع والعالم، وتوحّد معه، فصار الإله والطبيعة والإنسان شيئاً واحداً.

العلمانية الشاملة، القائمة على احتواء العالم المادي على كلّ ما يضمن تفسيره، وسيادة قوانين تسري على الطبيعة والإنسان.

الجماعة الوظيفية، تفيد أن استمرار جماعة بشرية في المجتمع قائم على أدائها لوظيفة محددة ومعيّنة، التي هي مصدر وجود الجماعة، واستمراريتها، وكل هذا مرهون بقدر حاجة المجتمع إليها.

ثالثاً: «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، مشروع حياة

تعتبر **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** مجالاً خصباً جسّد فيه المسيري ما سلف ذكره في هذه الدراسة، فهذا النموذج التفسيري الجديد من أهم الأعمال التي قدّمها، ولا تكمن تلك الأهمية في كم المعلومات المقدمة فقط؛ وإن كان هو نفسه يقلّل من أهمية هذا البعد، بل تتجاوز ذلك إلى نموذج تفسيري تقدمه استناداً إلى آليات تحليلية ونماذج تفسيرية.

هذه الموسوعة أخذت من الراحل ما يقارب نصف عمره بغية تفكيك سوسيولوجي أنثروبولوجي تاريخي لليهود كأفراد والصهيونية كجماعة. فما الجدّة التي يقدمها منجز دام إعداده ربع قرن؟ ولماذا هذه الصيغة المركّبة التي جاء بها العنوان؟ وما دواعي التأليف حول موضوع سوسيولوجي من مفكّرٍ «متخصّصٍ» في الأدب المقارن، بعيدٍ كلّ البعد عن عوالم السوسيولوجيا؟ وما هي حدود التزام الباحث بضوابط البحث السوسيولوجي بغية قراءة موضوعية للظاهرة الصهيونية؟

١ ـ مخاض إبداع هذا المنجز الأصيل

تُعَدُّ الموسوعة أول محاولة عربية استثمر صاحبها معارفه في مجالات عديدة، ليضع أمام القارئ والباحث والأكاديمي وصانعي القرار معالجات منهجية ومعرفية للمفردات والمفاهيم ذات الصلة

بالموضوع، بعدما تجشّم عناء تحريرها من التحيزات الأيديولوجية والمذهبية من قِبَل مَنْ قاموا بصياغتها. إنها عمل علمي «نبيل» رغم ما لهذا القول من تناقض بين صفتي «العلمية» و«النبل»، على الأساس الشائع عن العلم والمعرفة، ألا وهو عدم تأثره بالقيم والأحكام القيمية والأخلاقية، وهو تناقض ظاهري أكثر من كونه حقيقة، خاصة في مجال العلوم الاجتماعية، إذ تأثرها بالقيم الثقافية والأخلاقية وارد بحكم طبيعة التداخل بين الباحث وموضوع بحثه (الانتماء المشترك إلى الظاهرة الإنسانية).

موسوعةٌ تجاوزت استيعاب المعارف وتكرارها إلى التحليل والنقد وإعادة صياغة المفاهيم صياغة دقيقة، تجبر القارئ على مراجعة المسلمات والافتراضات التي كانت قائمة في ذهنه، دافعةً إيّاه إلى طرح أسئلة وإشكالات ذات طبيعة مركّبة معقدة وبنائية. بل واعتبر البعض تاريخ إصدار هذه الموسوعة بمثابة المرحلة الثالثة من مراحل معرفة إسرائيل، بعد مرحلتي ما قبل ١٩٦٧ ذات المعرفة الأيديولوجية التي يستحوذ عليها الطابع الديني، وما بعد ١٩٦٧ والهزيمة التي أفرزت مراكز أبحاث تشتغل في مجال البحث عن معرفة موضوعية ودقيقة عن إسرائيل، مرحلة اتسمت بالنقلة النوعية والمنهجية في معارفنا حول إسرائيل، والتي بدمجها مع السائد في الساحة السياسية قد تمكّننا من رؤية دقيقة لطبيعة السلام مع إسرائيل.

يقع هذا «البراديغم» (Le Paradigme) أو النموذج الإرشادي في حقل الدراسات المرتبطة باليهود واليهودية وإسرائيل والصهيونية في ثمانية مجلدات، يضم **الأول** الإطار النظري العام الذي يتجاوز الظاهرة اليهودية لشرح المصطلحات المستخدمة بعد تحييدها وفكرة النموذج كأداة تحليلية؛ وفي المجلدين **الثاني** و**الثالث** إشكالات

متعلقة بدراسة الشأن اليهودي من قبيل العزلة والخصوصية اليهودية، الهوية اليهودية، اليهود والجماعات اليهودية، معاداة اليهود، إشكالية الإبادة، العلمانية واليهودية، الاستنارة اليهودية، الرأسمالية والجماعات الوظيفية، التربية والتعليم عند الجماعات اليهودية؛ في المجلد **الرابع** نجد تواريخَ حول الجماعات اليهودية كلٍّ على حِدَة في بلدان العالم (فرنسا، إنكلترا، ألمانيا، بولندا، المجر، رومانيا، جنوب أفريقيا...)؛ ويتناول في **المجلد الخامس** اليهودية في مفاهيمها وفرقها بما في ذلك الإله، الشعب المختار، الأرض، الكتب المقدسة والدينية، الأنبياء والنبوة، اليهودية الحاخامية (التلمودية)، الفكر الأخروي، اليهودية والمسيحية، اليهودية والإسلام، اليهودية الأرثوذكسية؛ أما **المجلد السادس** فإنه خاص في تعريف الصهيونية، تياراتها، تاريخها، حركتها وعلاقاتها بالجماعات اليهودية؛ ويأتي **المجلد السابع** خاصاً بإسرائيل من حيث إشكالية التطبيع والدولة الوظيفية، والدولة الاستيطانية الإحلالية والنظام الاستيطاني الصهيوني وأزمة الصهيونية والمسألة الإسرائيلية؛ وفي **المجلد الثامن** آليات الموسوعة، وملحقاً خاصاً بالمفاهيم والمصطلحات الأساسية والفهارس الألفبائية.

نتوقف لاستحضار وصف رائع لهذه الموسوعة من قبل الكاتب فؤاد قنديل بقوله: إن احتواء الموسوعة على ثمانية مجلدات، وتوزيع موادها على النحو الدقيق جاء ثمرة ناضجة لمعايشة تقرب من ربع قرن، وبوسعنا أن نتصور الموسوعة جسداً إنسانياً. توفرت له الأعضاء والأجهزة لينبض ويتحرك ويعيش ويتكاثر ويؤثر؛ فهناك الذراعان المجلد الأول والثامن. أما الجماعات اليهودية فهي القلب في المجلد الثاني والثالث والرابع، أما الخامس فهو الصدر أي اليهودية، ثم الرأس أي الصهيونية في المجلد السادس. أما الساقان

اللذان يمشيان ويركضان بالجسد كلّه ففي المجلد السابع حيث نلتقي بإسرائيل المستوطن الصهيوني.

وعن ملابسات ودواعي التأليف وما أثير حوله يقول المسيري: «أفرّق هنا بين ثلاث مراحل: مرحلة التكوين أي مرحلة دراستي للصهيونية، ومرحلة العمل الموسوعي وهي مرحلة كتابة الموسوعة ذاتها. بدأت دراستي الجادة للصهيونية عام ١٩٦٤ فكتبت أول كتيّب عنها عام ١٩٦٥، وبدأت عملي الموسوعي عام ١٩٧٠ حين بدأت في كتابة **نهاية التاريخ**».

تطلّب إخراج هذه الموسوعة إلى حيِّز الوجود معاناة وقلقاً فكريين؛ حيث يحكي المؤلف تلك التفاصيل الدقيقة في الفصل الرابع من مذكراته، فنجد أن بوادر الموسوعة كانت عند تأليفه كتاب **نهاية التاريخ**، إذ وجد نفسه مضطراً إلى التوقف عند كل مصطلح لتعريفه لانخفاض مستوى المعرفة لدى القارئ في هذا المجال، ما دفعه إلى التفكير في إلحاق مسرد يوضح فيه ما غمض من المصطلحات والأعلام، ثم تحوّل الملحق تدريجياً إلى كتيّب معجمي، ثم صار معجماً صغيراً، ثم معجماً كبيراً، ثم تحول إلى موسوعة صغيرة من جزء واحد. غير أن ذلك لم يشف غليله بعد إدراكه جملة من المفارقات التي تكتنف الموضوع، ما دفعه إلى التفكير في تحويل المشروع إلى موسوعة تفكيكية شاملة تحاول تفكيك المصطلحات، وتهدف إلى توضيح المفاهيم والتحيزات الكامنة وراءها.

صدرت الموسوعة في عام ١٩٧٥ بعنوانها **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية**، التي لقيت انتشاراً واسعاً في السعودية. وقد تعرّضت للتحديث بدءاً من العام ١٩٨٢ على أساس إتمامها في غضون عامين أو ثلاثة، بيد أن المؤلف اكتشف

الطبيعة التفكيكية لموسوعة ١٩٧٥، التي لا تعدو أن تكون عملية تمدد أفقي لا تؤدي إلى أي حكمة، ولا تطرح بديلاً، نقيض التأسيس الذي هو عملية إبداعية تركيبية تتجاوز التفكيك، للغوص في أعماق كل الأبعاد وإعادة الترتيب والتعاريف. إجمالاً تحولت الموسوعة من معلوماتية تراكمية إلى تفكيكية هدّامة لتصل إلى تأسيسية تحليلية.

يقول المسيري متحدثاً عن هذا الإنجاز: «كان عليّ أن أتّبع نظاماً حديدياً في حياتي، فأهملت كثيراً من التفاصيل وضمرت حياتي الاجتماعية إلى حد كبير مّما سبّب لي الحزن أحياناً. وكنت أستيقظ في الصباح المبكر قبل السادسة صباحاً وأبدأ في الكتابة حتى الثانية عشرة مساء، لا أتوقف إلا لتناول الطعام والنوم حوالى ساعة في الظهيرة. وتستمر هذه العملية ما يزيد أحياناً على ١٠ أيام. وحين كنت أذهب إلى الاصطياف كنت أملأ حقيبتين بالمراجع، لأن ساعات العمل في المصيف كانت طويلة لعدم وجود تلفون، فضلاً عن اختفاء الحياة الاجتماعية تماماً».

٢ ـ تأملات في البناء المنهجي للموسوعة

التأمل في البناء العام للموسوعة يكشف عن جملة ملاحظات بخصوص هيكلتها، فالتصميم المعتمد من الباحث قد يكون غير مقبول من البعض، فهو يبدو على غير ما عهدوه في الأنماط التقليدية للموسوعة. لقد جاء هذا الأخير أكثر ملاءمة للموضوع ـ من وجهة نظر الباحث ـ انطلاقاً من رؤية فكرية ثاقبة متعدياً الشكل التقليدي الذي تلتزم فيه أغلب الموسوعات بالترتيب الأبجدي، خلافاً لتصميمه الذي يمكن من قراءة الموسوعة باعتبارها كتباً مستقلة إلى حدّ كبير، أو قراءتها ككتاب واحد مكوّن من أجزاء.

مردُّ هذا التجديد في التصميم هو طبيعة الموضوع المبحوث

فيه، فهو أشبه بالسير في درب غير معبّد ولا محدّد، أو البحث عن خيمة في الصحراء الشاسعة من جهة. ومن جهة أخرى فالمؤلف مدرك النقص المعلوماتي الكبير الذي يعانيه الفرد العربي، إزاء هذا الموضوع والأفكار المتضاربة لديه، ما يعني فقدان الوعي بالمداخل التي يريد أن يبحث عنها. فيحدث أن يدخل عن طريق الفهرس مثلاً للبحث عن مفهوم محدد ليجد نفسه وسط حقل معرفي كامل.

إن النموذج التفسيري الذي تنعت به الموسوعة تتجاوزه أحياناً لتصير تعليمية، فبدت، غير ما مرّة، وكأنها تتوجه إلى أشخاص محدودي الثقافة والمعرفة، تسعى إلى شرح الكثير من المصطلحات أو المفردات البسيطة، فضلاً عن فصول إضافية لتفسير المفاهيم والمقولات ذات الدلالة الخاصة. وحتى علامات الترقيم لم تستثنَ من الدراسة في سعيٍ من الباحث إلى إنعاش ذاكرة القرّاء، عن طريق تخصيص صفحتين كاملتين لبيان دلالاتها وطرق ودواعي استخدامها.

أسلوبياً أعاد المسيري عبر المجلدات الثمانية صياغة المعلومة في بوتقة فكره الخاص صاهراً إيّاها في نسيج تأملاته وقراءاته الخاصة، ما أعطى الفرصة للإنشائية لكي تتسلل إليها، بل وتغلب أحياناً، غير أن وجودها لا ينفي توفر المعلومات بالمجمل والتفصيل. إنشائية جعلتها تقترب إلى كتاب كبير مكوّن من ثمانية مجلدات، يضمّ كياناً فكرياً وعلمياً ضخماً على قدر كبير من الأهمية، أكثر مّما يقترب إلى موسوعة بمعناها التقليدي.

لقد كان هذا العمل الفريد، أسلوباً ومنهجاً، نموذجاً أمام الإفلاس العقلي وغياب التحليل العلمي، والمواقف الارتجالية للحكّام

والمحكومين، وقصور الخطاب التحليلي العربي، وغياب النموذج التفسيري الاجتهادي المركب... الذي هيمن على الكتابات الغربية المتحيزة والمتعصبة؛ التي تقوم على أساس النظر إلى اليهود كضحايا ومعذبين في الأرض على الدوام، أما الحكومات العربية فتحارب العدو بالشعارات والكلام بعيداً عن العلمية.

عنوان الموسوعة عينه لم يسلم من التغيير وإعادة الصياغة في تركيب جديد **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري**. كان بإمكان المؤلف أن يكتفي بـ «موسوعة اليهودية والصهيونية»، بيد أن هذه الصياغة تحمل في طياتها معنيين؛ أحدهما احتواؤها على معارف دقيقة وموضوعية مستخلصة من مصادر علمية مختلفة بتقنيات ومناهج علمية دقيقة، والآخر توضيح للمتلقي يساعده على التعامل مع المعطيات والمعارف المقدمة له، على أساس تنقيح وفرز وتحيين جديد بعيداً عن كل التحيزات.

٣ ـ وقفة مع بعض حقائق الموسوعة

حاول المسيري في المجلدين السادس والسابع تفكيك أسطورة السوبرمان الذي لا يقهر، والقوة التي لا حول لنا ولا قوة لنا بها، والمبنية بالأساس على شيوع النماذج الاختزالية، خاصة التآمرية منها. مكسّرة القيود والشعارات التي أراحتنا من عناء التفكير وأوصلتنا إلى حالة التكفير، ضاربةً عُرْضَ الحائط بجملة من المسلّمات والثوابت المترسخة في الأذهان. فالدولة الصهيونية يقول عبد الوهاب المسيري ليست مؤامرة عالمية بدأت مع بداية الزمان، وإنما هي قاعدة عسكرية واقتصادية وثقافية وسكانية للاستعمار الغربي، والصراع معها جزء من المواجهة العامة مع الحضارة الغربية الغازية.

ولعلّ أولى الحقائق التي يكشف عنها **وجوب التمييز بين**

اليهودية والصهيونية، مفنّداً بذلك مقولة أن الحركة الصهيونية صَهْيَنَت اليهود، إذ ثمّة يهود ومنظمات يهودية غير صهيونية، وداخل الإطار نفسه تميّز الموسوعة بين مجموعتين صهيونيتين كبيرتين هما: **الصهيونية الاستيطانية**، و**الصهيونية التوطينية**؛ **الأولى** ظهرت بين الصهاينة غير اليهود وبعض اليهود المندمجين في الغرب غير الراغبين في الهجرة، مكتفيين بتقديم الدعم للمشروع الصهيوني؛ و**الثانية** بعد هرتزل وبلفور، المتمثلة في التيار العمالي وعناصر أوروبا الشرقية حيث الكثافة السكانية اليهودية.

كما تكشف الموسوعة النقاب عن الخلافات التي تتخبط فيها الحركة الصهيونية من قبيل الخلاف بين الصهاينة التوطينيين والصهاينة الاستيطانيين، والخلافات الأيديولوجية بشأن الدولة الصهيونية من حيث الحدود، السيادة، الأيديولوجية، . . . بل صارت الدولة الإسرائيلية مصدر تماسك المجتمع بدل «القيم الدينية».

تمكّنت هذه الموسوعة من الغوص في أعماق المجتمع الصهيوني للوقوف على العنصرية السائدة فيه والتراتبية التي يقوم عليها وفق الترتيب التالي: (١) مواليد البلد الغربيون؛ (٢) المهاجرون الغربيون؛ (٣) أبناء البلد؛ (٤) مواليد البلد الشرقيون؛ (٥) مهاجرون شرقيون.

نعم إنها الديمقراطية التصنيفية التي تتناسب مع دور الدولة الوظيفي (وظيفة قتالية، وظيفة اقتصادية، وظيفة تجارية)، كاشفة العقد الصوري الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية، فما يحدث هناك ليس منفصلاً عمّا يحدث هنالك؛ أي أن صراع المنطقة مرتبط بالمصالح الكونية الغربية، والوعي بهذه الحقيقة هو حجر الزاوية في أي استراتيجية للتعامل مع القضية.

إن أي دراسة حيادية لأي جماعة لا يمكن أن تعتمد كلية على رصد أوضاعها الاقتصادية، وإنما يجب أن تعتمد على دراسة أفكارها وأساطيرها، رؤى مكّنت المؤلف من إعادة النظر في كلّ شيء، قائلاً في هذا الصدد: لا بد أن نكتشف أولاً بعض الأساطير؛ فالادّعاء العنصري القائل بأن الطبيعة الخاصة لليهود هي التي جعلتهم ينجذبون إلى قطاعي التجارة والربا ادعاء ساذج، لأنه لا يفسّر شيئاً البتة. كما أن هذا الإدعاء يرتدّ بنا إلى العصور الوسطى، حين كانت خصوصية الشيء أو وظيفته تفسَّر على أنها نابعة منه.

هنا نتوقف قليلاً عند بعض المسلّمات التي أقدم الباحث على قلبها رأساً على عقب، التي كانت وما تزال من المحرّمات في نظر الصهاينة كإشكالية الهوية اليهودية، إشكالية التعداد، إشكالية الإبادة النازية ليهود أوروبا التي لم تكن بالمناسبة موجّهة ضد اليهود وحسب، بل ضد سائر الأعراق غير النافعة من وجهة نظر النازية. مصطلح معاداة السامية الذي يرفضه الباحث بما يضمّه من تضمينات عنصرية وأطروحات خاطئة، مفضّلاً توليد مصطلح جديد هو معاداة اليهود الأكثر دقة ودلالة، كما أنه الأكثر حياداً. اعتباراً منه أن مصطلح اللاسامية يعود إلى عام ١٨٧٩ حيث استخدمه الصحفي اليهودي الألماني ولهلم مار (١٨١٨ ـ ١٩٠٤) للدلالة على معاداة اليهود/ السامية، غير أن بعض الكتّاب الغربيين يميلون إلى التمييز بين معاداة اليهودية ومعاداة السامية؛ إذ الأولى في نظرهم عداء ديني للعقيدة اليهودية وحدها، بإمكان اليهودي التخلص منها باعتناقه المسيحية مثلاً؛ أما الثانية ـ السامية ـ فهي عداء لليهود بوصفهم عرقاً، وبالتالي فهو عداء علماني لا ديني، وهو تقسيم خاص بنظريات وأطروحات شبه علمية حول الأعراق؛ وهو أمر تحفّظ عليه المسيري كثيراً، وهو على صواب.

رابعاً: السيرة الذاتية، أو حين يحمل النص أكثر من معنى

استطاع المسيري أن يخلق التفرّد والتميّز في كلّ شيء؛ فحتى في سيرته الذاتية التي انتظر فيها قرّاؤه ومتتبعوه تفاصيل وجزئيات حياته الخاصة، كما العادة في هذا الجنس الأدبي، ما انفك هذا الرجل يعلن القطيعة مع المألوف والمعتاد لدى عموم قرّاء السرد الذاتي، مقدّماً الدليل على إمكانية التجاوز لأفق أرحب للإبداع.

تمكّن النص السردي للمسيري من الانفلات من كلّ تعقيدات نظرية الأجناس الأدبية، وكذا من المقاربات النقدية الشكلية، ومن ثم فهذا النص عَصِيّ عن الإدراك إلا خارج النسق المتواشج لنصوص متنوعة ومتناصّة فيما بينها. هذا بدون التغاضي عن خصيصة التكثيف من خلال الإحالة على أفكار عديدة ونصوص متكاثرة، مع التوجه نحو تركيب معرفي ومنهجي بطاقات تحليلية مبدعة، وضمن شبكة مفهومية وجهاز نظري متكامل وقوة تفسيرية باهرة.

إن الكاتب من خلال هذه السيرة يطمح إلى تقديم خلاصات لرحلته الفكرية كمثقف عربي، وليس سرداً لحوادث حياته كأب وزوج وابن وصديق وعدو. ولأنها كذلك، فهي تحاول رصد التحولات التي أصابت الكاتب، وتؤرّخ بالقدر نفسه لجيله. وكأني بالمسيري يناصر المفكّر المغربي محمد عابد الجابري حين يقول في سيرته «حفريات في الذاكرة»: «إن من الذكريات ما تنتمي حوادثها إلى الماضي، وإن منها ما ينتمي إلى المستقبل، لا بحدوثها الزمني بل بآثارها ونتائجها».

يتّضح الأمر بجلاء حين نجد السارد يتخذ من قصص الطفولة

والتكوين والدراسة أرضية ليبذُر من خلالها مجمل الأفكار التي تعلّمها في الجامعة وغيرها؛ من خلال الحوار والسفر والتعرف على الثقافات الأخرى. فمجال السيرة التي يعمل الكاتب هنا على استكشافه يكمن في قدرتها ـ أي السيرة ـ على استيعاب الأفكار وتطبيقاتها، ولهذا السبب بالتحديد يصير النموذج «السيرذاتي» للسارد ثانوياً في مجال سيادة الذاكرة المتداخلة مع الفكر ومنطق الوجود وفلسفته.

لقد تمكّن عبد الوهاب المسيري في سيرته من قلب المعايير المعروفة في السرد الذاتي، التي تركّز على أثر البيئة في تكوين الشخصية، مركزاً في المقابل على أهمية التعليم والمعرفة في تشكل رؤية الفرد عن تاريخه، ونفسه وذاكرة طفولته، وبالتالي عالمه الذي عاشه فيه.

كان الكاتب انتقائياً في سيرته، حيث اختار من أحداثها ما اعتقد أن له علاقة بمسيرته الفكرية، أما الأحداث الشخصية ذات الطابع الذاتي المتصلة بالعائلة والأبناء فقد استبعدها. ما جعل الإطار الانتقائي عنصراً مساعداً على عقد مقارنات، والقفز في بعض الأحيان على منطق التتالي الزمني لصالح التركيز على هذه القضية أو تلك. فهو ينطلق من مفهوم أن المعرفة الإنسانية معرفة مقارنة حتى في سيرته، من خلال طرح عدة محاور ساهمت في بناء شخصيته، فالقلق الشخصي قاده إلى قلق معرفي، قدم مع حضوره عدداً من الأسئلة.

إن محصلة قراءة وتمحيص رحلة المسيري الفكرية تفضي بنا إلى الإقرار بأنها ليست كتاباً فكرياً صرفاً، وفي الآن ذاته لا تصنف سرداً ذاتياً مطلقاً، فهي لا تعدو أن تكون في أحسن الأحوال في

منزلة ما بين المنزلتين؛ يقدم الكاتب فيها خلاصة رحلته الفكرية المجردة عن الذاتي، ويترك للقارئ مهمة الاستخلاص أو حتى التفكير في طبيعة الحياة التي عاشها، ففيها يخلط ما بين الذاتي والمعرفي، ولكنه يضع المعرفي في المقدمة، في حين يأتي الذاتي في المرتبة الثانية.

إن المسيري عينه ليس متأكداً من ماهية هذا الشكل في قراءة الحياة الذاتية واستعادتها، ولذا فهو يتساءل عمّا إذا كان هذا الشكل الأدبي جديداً قديماً، أم أنه في ملمح منه يخلط بين القديم والحديث. وهذا الإشكال بالذات يتركه الكاتب للقارئ ليحكم عليه، وعلى نجاحه في التعرف على هوية الكاتب المعرفية والتعريف بها.

على متن التلقّي لمعظم نصوص السيرة الذاتية التي طالعنا، يمكن أن نجمل القول عنها وفيها؛ بكونها تجعل وقائع الحياة الشخصية، وكذا الاجتماعية العامة تتحول بمجرد وقوعها إلى ذكريات في نفس الإنسان. تتراكم مع مرور الزمن وتتدافع، ويغطي بعضها بعضاً أو يخنقه أو يمحوه ويلغيه، فإن ما يبقى منها صامداً هو أشبه ما يكون بالقِطَع الأثرية التي تمكّنت ـ بهذه الدرجة أو تلك ـ من مقاومة عوامل التحلّل والاندثار، وسط ما تراكم عليها وحولها من مواد لا أثرية، لا تاريخية؛ فغدت تفرض نفسها على الباحث الأركيولوجي ـ الباحث المنقّب عن الآثار ـ كمعالم وشهادات ذات معنى.

بيد أن المسيري يأبى إلا أن ينسل من مظان هذا التعميم من خلال تأكيده ملازمة هذا المفكّر لعالم الأفكار ـ بعيداً عن عالمي الأشياء والأشخاص حسب تعبير مالك بن نبي ـ في كلّ حركاته

وسكناته، ما يجعله يكتب سيرة قرائه أكثر مما يكتب سيرة نفسه، على حد تعبير الباحث المغربي إبراهيم أمهال؛ ففي كثير من الأحيان يجد القارئ نفسه مكان المسيري في غير ما موضع في السيرة؛ إنه يكتب سيرة أمّة لا سيرته.

إن مسار هذا العَلَم الفَذّ ورؤيته لذاته وللعالم من حوله تتكشّف لنا بجلاء في بعض فصول هذه الرحلة، وأيضاً حين نعلم أنه استقال عام ١٩٩٠ من جامعة عين شمس ليتفرغ لإنهاء الموسوعة. وربما تكون هذه اللحظة الفاصلة التي انبلج فيها الضوء على أهمية المسيري كمفكر عربي، لا ينظر إلى العلم كوظيفة يتكسّب منها، بل رسالة يحملها على كاهله، وأمانة يؤديها لأمته، ولذلك كان عقلاً عربياً موسوعياً ومبدعاً.

إن ذلك هو الفارق بين العقل المبدع والعقل الأكاديمي، هو أيضاً الفارق بين عقل يوظّف المؤسسة والأطر التعليمية في الوصول إلى الحكمة والمعرفة، وتوظيفها لخدمة الإنسانية، وعقل آخر يختفي فيه المنظور النقدي، وتتلاشى أسئلة الوجود والهوية، ويصبح فيه العلم حرفة، وتحصيله وظيفة، والإنتاج العلمي وسيلة للترقي في الأطر الإدارية والمراتب الاجتماعية.

خامساً: عبد الوهاب المسيري مناضلاً، على أكثر من جبهة

لا يمكن للمشتغل والمنشغل بفكر عبد الوهاب المسيري، ألاّ يقف طي أبحاثه عند صفة لازمت هذا الرجل منذ بواكير أيامه في الساحة الفكرية؛ إنها النضال والسعي نحو ربط المعرفة بالقيم، حتى تصير مشاعاً تنتفع به الإنسانية، لا مجرد ترف فكري تقوم به النخبة

في أبراجها العاجية. وقد وصلت به درجة الوفاء والالتزام حدّاً يصف فيه مساره في مذكرات قائلاً: «لم أضطر قط إلى القيام بعمل يتناقض مع مشروعي الفكري أو يعوقه، ولم أعمل إلا في وظائف أقوم بتوظيفها لخدمته».

مسار حياة، رسم الرجل معالمه، وحدد إحداثياته بدقة متناهية قلّ نظيرها. وعن أسس النضال في حياته يقول: «لا أحب الدخول في المعارك الصغيرة، وأفضّل الاستسلام فيها حتى لا تستنفد طاقتي فيما لا يفيد (دائماً أنصح أصدقائي وتلاميذي أن يبتعدوا عن المعارك الصغيرة التي تفرض عليهم، التي يمكن أن تستنزف الإنسان بل وتقضي عليه، ومصر الآن عامرة بالمعارك الصغيرة في كل مكان، وقانا الله وإياكم)».

هذا الوفاء والالتزام متجذّر في مسار هذا المثقف العضوي على أكثر من جبهة، فقبل أن يكون المنسق العام لتجمّع المعارضة في مصر المعروف اختصاراً بـ «كِفايا» بعد أن ترهّل في العمر، كانت له جبهات للنضال والممانعة منذ بداياته الأولى في أمريكا وجنوب أفريقيا ومصر وغيرها من البلدان التي زارها. وكانت إحدى هذه الجبهات المناظرات التي خاضها في أمريكا مع العديد من الأساتذة حول الصراع العربي ـ الإسرائيلي، ومنهم الجنرال متيتياهو بيليد والبروفسور هالبرن وعميد كلية الحقوق بجامعة تل أبيب، . . . التي وصف مناقشاتها بالمهذبة والودية متى كان المتحدث مؤطّراً بمرجعية عقلانية، فيتمّ الاتفاق على كلّ شيء تقريباً ممّا يسبّب الإحراج لهم، لكون الاتفاق يكون بالاعتراف للفلسطينيين بحقوقهم. غير أن المتناظر يكون عنصرياً لا عقلانياً في بعض الأحيان، ما يجعل المسيري يكسب جولات المناظرة بدون عناء.

وأبرز مثال على ذلك المناظرة التي كانت بينه وبين البروفسور جوزيف ناير ـ أحد المتخصصين في فكر أوغست كونت في العالم الغربي ـ عام ١٩٦٩، وكان معروفاً لدى الأوساط اليسارية، التي انتهت بسقوط عقلانية هذا الأخير أمام الحاضرين، حين لم يتمالك نفسه، وتحرّك إلى مقدّمة المسرح، ليتحدث بصوت وثني بدائي ـ كما يصفه المسيري ـ قائلاً: «هذه حقوق الشعب اليهودي المقدسة، وسندافع عنها بحدّ السلاح، ولن يوقفنا أحد».

وفي سياق متّصل يعلّق المسيري على هذه المعارك الفكرية التي خاضها إبّان إعداده رسالة الدكتوراه، فيقول لأستاذه وايمر ـ المشرف عليه في الدكتوراه ـ : «أنا أفهم جيداً حدود الديمقراطية في أمريكا، هناك خطوط حمر إن عبرتها قضي عليّ، وقد عبرت هذه الحدود في رسالتي للدكتوراه: طالب من العالم الثالث يتحدى الرؤى الغربية السائدة، بل يتعامل مع الحضارة الأمريكية بطريقة أنثروبولوجية محايدة». وهو واقع الحال، إذ بعد الانتهاء من المناقشة خرج من الغرفة حتى تتداول اللجنة. وحينما رجع أخبره أعضاء اللجنة بأنهم وافقوا على منحه درجة الدكتوراه، ووقّعوا على الرسالة بموضوعية بالغة، ثم أداروا ظهورهم له، ولم يصافحه أيٌّ منهم، كما هي العادة في مثل تلك المناسبات.

وخارج أمريكا، وتحديداً في جنوب أفريقيا التي زارها عام ١٩٨٧ للمشاركة في مناظرة تلفزيونية هناك مع اثنين: أحدهما يهودي يشتغل أستاذاً للعلوم السياسية بالجامعة، والآخر كان رئيساً للمنظمة الصهيونية هناك، التي انتهت بهذا الأخير يتفوه بكلام لا معنى له، كاشفاً مظهره الصهيوني العنصري الحقيقي.

لم يكن النضال عند المسيري في المجهر فقط كمتنفس وبديل

لمعاناة الاغتراب عن سؤال الوطن، فحينما بدأت مظاهرات الطلبة ضد حالة اللاحرب واللاسلم اشترك هو وزوجته في حملة جمع التوقيعات تأييداً لهم. ولما كتب د. فؤاد زكريا بيانه كان المسيري وزوجته من أوائل الموقّعين عليه، ما جعل رئيس الجامعة يظن أنه محرّر البيان، فاستدعاه إلى مكتبه وأخذ يعنّفه لأنه تسبّب في إغلاق الجامعة؛ فما كان منه إلا أن ردّ عليه بالقول: «إن الجامعة المفتوحة في بلد محتل لا فائدة منها، وإنه قد يكون من الواجب أن نغلق الجامعات لنحرر الأرض».

ومن المعارك النضالية التي خاضها في مصر أيضاً مشاركته في الجهود الرامية إلى إيقاف التطبيع، كما كان، أيضاً، عضواً في لجنة مناصرة الشعب الفلسطيني واللبناني، وعن ذلك يقول في مذكراته: «اشتركت أيضاً في كثير من النشاطات السياسية إبّان ثورة الأقصى، كما شاركت زوجتي فيها بكل جوارحها، حتى إنني كنت أقول مازحاً حين أريد مقابلة زوجتي الآن فإنني أذهب إلى إحدى المظاهرات».

ولم يكن النضال حصرياً عند الرجل في أماكن ولحظات ومناسبات، بل كل حركاته وسكناته كانت مواقف نضالية لصالح مشروعه. وعن ذلك يسرد واقعة في رحلته الفكرية عن مشروعية خطاب المقاطعة فيقول: «حينما ذهبت إلى المكسيك اشتريت مجموعة من السيجار الكوبي، وعادة ما تتجاهل الجمارك الأمريكية مثل هذه البضائع، لأنها لا تهدد الصناعة الأمريكية ولا المقاطعة الأمريكية المفروضة على كوبا. ولكنني أخبرت موظف الجمارك أنني أحمل سيجاراً كوبياً، فاضطر إلى مصادرته، وإعطائي إيصالاً بأنني أدخلت بضائع محظورة. واستخدمت هذا الإيصال في أحد البرامج التلفزيونية، لأبيّن للمشاهد الأمريكي أن المقاطعة ليست أمراً غريباً

وشاذاً، وإنما هي أمر عالمي مشروع، تلجأ إليه كل الدول في حالات معينة».

لقد بلغ دهاء الرجل وتمرسه في المعارك الفكرية والمواقف النضالية مبلغاً استطاع به أن ينجو من ورطة لأحد طلبته اليهود الحاضرين في إحدى مناظراته عن الصهيونية في أمريكا، حين فاجأه بدعوة إلى زيارة إسرائيل. ويسرد تفاصيل الحادثة قائلاً: «بطبيعة الحال لم أرفض الدعوة مباشرة، فهذا هو ما يطلبه الصهاينة، إذ كانوا يحرصون على إخفاء رفضهم للفلسطينيين، وإنكار وجودهم، حتى يظهروا بمظهر العقلانيين الذين يقبلون بالأمر الواقع، والواقعيين الذين يقبلون الحقائق، والمظلومين المرفوضين من قبل العرب لسبب غير مفهوم، الأمر الذي يجعل المقاومة العربية تبدو كما لو كانت مجرد إرهاب لاعقلاني. فوافقت على دعوته شريطة أن أحصل على تأشيرة الدخول من منظمة التحرير الفلسطينية. فرفض طلبي بطبيعة الحال، ووضعت طالبي هذا ومعه الصهاينة في موقف المدافع عن النفس، وبيّنت أن الصهاينة والإسرائيليين يرفضون الاعتراف بالفلسطينيين».

وكان للجبهة السياسية الداخلية نصيبها من النضال، حيث كتب الراحل مذكرة للسفير المصري أشرف غربال يقترح فيها عليه طرقاً أكثر تركيبية للحركة ضد العدو الصهيوني، وأخبره عن جماعات اليسار الجديد التي كان ثلث أعضائها من اليهود، ومع ذلك كانت معادية للصهيونية ولإسرائيل. وقد دعاه السفير إلى مكتبه، وطلب منه أن يكتب تقريراً عن الموضوع رفعه إلى الحكومة المصرية.

إنها بعض الأمثلة ـ وغيرها كثير ـ من حياة كلّها تضحية

والتزام ونضال من أجل الرسالة التي آمن بها واستشعر حجمها، ما جعله لم يدّخر أي جهد في سبيل أدائها. لقد بدأ وانتهى مثقفاً مناضلاً، بل ازداد نضاله مع كبره في السن ومرضه بالسرطان، ولم يكن ينتظر جزاءً ولا شكوراً من أحد.

سادساً: المشروع الفكري للمسيري في عالم ما بعد الثورة

يزداد الإجماع بين المهتمين بفكر عبد الوهاب المسيري حول راهنية المشروع الفكري لهذا العقل العربي الفذّ، خاصة بعد الربيع العربي الذي حمل العديد من المتغيرات على المستوى الداخلي أو الخارجي بالدول التي شهدت الحراك، ما سيكون له بالغ الأثر في جيوستراتيجية الوطن العربي في المستقبل.

تتّحدد معالم المشروع الفكري لعبد الوهاب المسيري في ثلاثة أقطاب كبرى، يتداخل بعضها مع البعض في اتصال يستعصي عن الانفصال. وهذه الأقطاب الثلاثة هي:

- **الشق الفلسفي الفكري** المتمثل في النزعة الإنسانية في الثقافة الإسلامية، بعدما تصاعد خطاب التطرّف والتعصّب والإقصائية والعنف.

- **الشق السياسي** الذي طرح فيها علاقة الدين بالدولة من خلال تصوره حول مفهوم العلمانية (علمانية جزئية/ علمانية شاملة)، في محاولة لتقديم رؤية نقدية جديدة حاولت تجاوز المتداول في الساحة الفكرية العربية.

- **الشق الاستراتيجي** المتعلق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي،

ومستقبل الوجود الإسرائيلي، وهو ما بدأ يبرز من خلال جملة من المتغيرات، سواء داخل دولة إسرائيل أو خارجها، وهو ما عبّر عنه الكاتب بيتر باينارت في كتابه «أزمة الصهيونية».

لا شكّ أن اشتغال المسيري على محور واحد من هذه المحاور يجعلنا نؤكد راهنية فكره والحاجة الماسة إليه، فكيف إذا كان المشروع مستوعباً المحاور الثلاثة.

إن وصول حركات الإسلام السياسي إلى دواليب الحكم والتسيير في العديد من الدول العربية بعد الحراك، يعيد إلى الواجهة طرح سؤال العلمنة من جديد، الذي كان محور اشتغال المسيري في الشق السياسي لمشروعه الفكري.

يبدو أن هذه المتغيرات على الصعيد السياسي، سوف تُعيد رسم خريطة العلاقات في الشرق الأوسط والوطن العربي، وهو ما فكّك المفكر طلاسمه في الشق الاستراتيجي، خاصة ما يرتبط بعلاقة الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

أما عن الجانب الفلسفي المرتبط بالنزعة الثقافية الإسلامية فالحاجة إليه كانت أسبق نوعاً ما، وذلك منذ بداية صعود الخطاب «الجهادي» أو «الإرهاب» في علاقة الشرق بالغرب.

وختاماً نقول إن كل هذا يجعل العودة إلى ما راكمه المسيري من أعمال بغية النبش فيها ضرورة ملحّة، تحتّمها الظروف التي يعيشها الوطن العربي. كما أن ذلك سيكون خير تكريم لهذا الرجل، ووفاء لمسار حياته التي حرص فيه أشد الحرص على ربط المعرفة بالقيم وجعله في خدمة الإنسانية.

المراجع

أوراق فلسفية: العدد ١٩، ٢٠٠٨.

في عالم عبد الوهاب المسيري: حوار نقدي حضاري. تحرير أحمد عبد الحليم عطية. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤. ٢ ج.

المسيري، عبد الوهاب. **الإنسان والحضارة والنماذج المركّبة: دراسة نظرية وتطبيقية.** القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢.

ــــ. **رحلتي الفكرية.. في البذور والجذور والثمار: سيرة غير ذاتية غير موضوعية.** القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥.

ــــ. **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة.** القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢. ٢ ج.

• تُعْنَى سلسلة «**أوراق عربية**» بنشر مادة فكرية ميسّرة لقاعدة واسعة من القرّاء، في موضوعات وشؤون مختلفة (سياسية، اجتماعية، اقتصادية، لغوية، إعلامية . . .)

• تسعى سلسلة «**أوراق عربية**» إلى تنمية تقاليد القراءة لدى الشباب، وبالتالي ربط قرّائها بالقضايا والإشكاليات الكبرى التي تشغل النُّخَبَ والرأي العام، وتتصل بالمصير والمستقبل في وطننا العربي، والعالم من حولنا.

أوراق عربية ٤٠.

في هذه الورقة تعريف بسيرة ونتاج المفكِّر عبد الوهاب المسيري (١٩٣٨ ـ ٢٠٠٨)، فأعماله الفكرية تمثل حلقة أساسية من حلقات الفكر العربي في العقود الأخيرة، وتمثل أعماله البحثية ـ لا سيما «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» نموذجاً لإنتاج العلماء النخبة في الوطن العربي. ولعل أبرز ما ميّز شخصيته ونهجه: (١) إبداع وابتكار مفاهيم ومصطلحات خاصة به؛ (٢) التفكيكية الواسعة التي اشتُهر بها؛ (٣) الجرأة الفكرية والصراحة في النقد والنقد الذاتي.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

e-mail: info@caus.org.lb

Web site: http://www.caus.org.lb

الثمن: دولاران

أو ما يعادلهما

ISBN 978-9953-82-565-6